**د/ إبراهيم أبراش**

**هل المشروع الوطني الفلسطيني كبش فداء وصول الإسلام السياسي إلى السلطة؟**

أرى من المفيد أن أشرح بمزيد من التوضيح المصير المأساوي للمشروع الوطني التحرري والذي حذرت منه وكتبت عنه كثيرا خلال السنوات الماضية ،مصير ينسج خيوطه تضافر عدة عوامل وأطراف بعضها داخلي وبعضها خارجي .لن نتحدث هنا عن إسرائيل ليس لأنها خارج إطار المعادلة بل لأنها العدو الأول والمستفيد الأول من تدمير المشروع الوطني وهي متواجدة وراء كل المخططات والمؤامرات التي تحاك ضد الأمة العربية والقضية الفلسطينية،إلا أن إسرائيل ما كانت تنجح في أهدافها لولا أدوات وسلوكيات لأطراف فلسطينية وعربية وإسلامية تواطأت أو قصرت في القيام بمسؤولياتها.وبالتالي يمكن أن نتحدث عن عوامل داخلية وعوامل خارجية مسئولة عن المصير المأساوي الذي وصل إليه المشروع الوطني الفلسطيني:-

أولا العوامل الداخلية :-

1. تهرب إسرائيل من دفع استحقاقات التسوية وعلى رأسها الانسحاب من الضفة وغزة وبالتالي وصول التسوية لطريق مسدود .
2. فشل نخبة المنظمة والسلطة في إدارة الصراع مع إسرائيل وفي العمل في إطار إستراتيجية وطنية شاملة.
3. تراجع الحالة الوطنية النضالية بشكل عام .
4. صعود الدور السياسي لحماس وخصوصا في قطاع غزة من خارج الإطار الوطني،وعملها كل ما من شأنه معاكسة منظمة التحرير والسلطة .
5. الانقلاب الذي أقدمت عليه حماس في قطاع غزة .
6. صيرورة غزة دولة أو كيان سياسي قائم بذاته ينتظر من يقرع الجرس ويعلن عنه رسميا أو يعترف به .

ثانيا العوامل الخارجية :-

1. تراجع ومكانة القوى القومية والثورية التقدمية في العالم العربي.
2. تراجع دور روسيا الاتحادية والصين ودول عدم الانحياز في السياسة الدولية وخصوصا في منطقة الشرق الأوسط.
3. المد الأصولي الإسلامي وفرض حضوره سياسيا وسعيه للوصول للسلطة في العالم العربي .
4. طرح أمريكا مبادرتها للشرق الأوسط الكبير.
5. التقاء مصالح الإسلام السياسي المعتدل مع المصالح الأمريكية على إعادة ترتيب أوضاع المنطقة.

قد يقول البعض إن تزامن صعود الإسلام السياسي وسيطرته على الحكم في أكثر من بلد عربي من خلال ما يسمى (الربيع العربي) مع السياسة الأمريكية للهيمنة على الشرق الأوسط من خلال مشروع الشرق الأوسط الكبير وسياسة (الفوضى الخلاقة ) يعود للمصادفة البحتة وبالتالي لا يوجد رابط يربط بينها وأية محاولة للربط بينها وتصوير الأمر وكأنه مخطط إنما يندرج في إطار فكر ونظرية المؤامرة. نعتقد أن شواهد الواقع وما يتوفر من معلومات يؤكد وجود هذا المخطط الذي يعرفه كثيرون من أصحاب القرار وبعضهم يشارك فيه بوعي ولكنهم يخفون الحقيقة عن الشعب حتى لا تتضرر مصالحهم وتتزعزع مواقعهم .كما أن نظرية المؤامرة التي يتذرع بها كل من يخشى الحقيقة ،جزء أصيل من الحياة السياسية المعاصرة وهي جوهر وقلب السياسة الواقعية التي تؤسس على القوة والمصلحة والتفاهمات والاتفاقات غير المعلنة ،وساذج من يعتقد أن كل سياسات الدول وخصوصا الكبرى تقوم على الشرعية الدولية والقانون الدولي والاتفاقات المعلنة ،فما هو خفي من هذه السياسات أكثر مما هو معلن.

إذا أذكر الأمثلة والحالات التالية ،ليس دفاعا عن الجماعات المتطرفة والإرهابية لأننا ندرك الدمار الذي لحق بالشعوب العربية منذ ظهور هذا الوباء ،كما لا أرمي من ورائها الطعن أو التشكيك بالأنظمة والدول والقوى التي تدافع عن نفسها وعن شعوبها من خلال مواجهة هذه الجماعات ،ولكن ما أرمي إليه هو تأكيد أن صعود الإسلام المعتدل كان على حساب تراجع بل وضرب الإسلام المتطرف. بدأ ضرب الإسلام المتطرف بتنسيق أمريكي أطلسي مع بعض الجماعات الإسلامية المعتدلة ،في أفغانستان ومنها انتقل إلى باكستان والعراق واليمن وغزة – مهاجمة حماس مسجد أبن تيمية وقتل الشيخ عبد اللطيف موسى وكل جماعته في أغسطس 2009 ،ومهاجمة جماعة جيش الإسلام بقيادة ممتاز دغمش في نفس العام - وأخيرا ما يجري اليوم في مصر حيث يقوم الجيش المصري برئاسة محمد مرسي ألإخواني بحرب ضد جماعات إسلامية في سيناء توصف بالإرهابية.

نعم ، إن أخشى ما نخشاه أن الفلسطينيين، شعبا وقضية تحرر وطني سيدفعون ثمن وصول وإيصال الإسلام السياسي المعتدل– خصوصا جماعة الإخوان المسلمين- للحكم في إطار أكبر تخطيط استراتيجي غربي /إسلام سياسي عبر التاريخ ،تشارك فيه حركة حماس باعتبارها امتداد لجماعة الإخوان المسلمين في فلسطين . إن كانت مؤشرات التنسيق بين الطرفين تعود لسنوات خلت حيث بداياتها مع العلاقة الخاصة التي ربطت جماعة الإخوان المسلمين في بداية ظهورها مع مراكز القرار الإستراتيجية في بريطانيا ثم تواصلت مع واشنطن وحلف النيتو منذ خمسينيات القرن الماضي لمواجهة الخطر الشيوعي في المنطقة،إلا أن أهداف هذا التحالف تغيرت من مواجهة الخطر الشيوعي إلى مواجهة خطر الإسلام المتطرف ومنه إلى السيطرة الإستراتيجية الكاملة على المنطقة.وعليه فهدف تحالف الغرب /الإخوان المسلمين يتجاوز إسقاط أنظمة دكتاتورية أو تأسيس أنظمة ديمقراطية.

إن كان من حق الشعوب العربية السعي للديمقراطية والتخلص من الدكتاتورية ،ومن حقها قبول الدعم من أي جهة كانت واختيار شبكة علاقاتها وتحالفاتها،كما من حق جماعات الإسلام السياسي المشاركة في الحياة السياسية وتولي السلطة ما دام الشعب اختارها،فإن أهداف واشنطن من وراء دعم الحراك الشعبي العربي تتجاوز نشر الديمقراطية في العالم العربي بل وتتجاوز مواجهة الإسلام المتطرف والإرهاب كما كان مرسوما في البداية. هذه أهداف جزئية أو مرحلية لخدمة هدف أكبر.واشنطن توظيف فزاعة التطرف الإسلامي لتحقيق أهداف أكبر من القضاء على الإرهاب، ولا نستبعد أن جزءا كبيرا من العمليات الإرهابية التي تقوم بها جماعات يُقال إنها منتمية للقاعدة موجهة بطريقة غير مباشرة من أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية التي اخترقت هذه التنظيمات،حتى يجوز القول إن لواشنطن ولإسرائيل (تنظيم قاعدة) خاص بهما .

ما يجري اليوم في العالم العربي والشرق الأوسط سيعيد ترتيب الأوضاع الجيوسياسية في المنطقة على عدة مستويات أهمها أنه سيجعل المنطقة العربية والشرق الأوسط كله منطقة نفوذ لواشنطن ولحلف الناتو ولإسرائيل، من خلال تجديد أنظمة الحكم والتحالفات في المنطقة بما سيعزز ويؤمن مصالح الغرب لسنوات قادمة،وهي سيطرة ستؤدي أيضا لتعزيز مكانة الغرب في صراعه الاستراتيجي مع منافسيه وخصومه الدوليين الحاليين والمستقبليين كروسيا والصين وأية قوة اقتصادية أو عسكرية صاعدة،ومع إيران إن ساءت العلاقة بينهم. لو اقتصرت نتائج هذه الإستراتيجية أو المعادلة الجديدة في المنطقة على إسقاط بعض الأنظمة الدكتاتورية التي انتهت صلاحيتها لهان الأمر وربما وجدنا عذرا لقوى الإسلام السياسي في التنسيق مع واشنطن، إلا أن الخطورة أن هذه الإستراتيجية تستهدف القوى التحررية و الوطنية والقومية والديمقراطية الحقيقية وتستهدف المشروع الوطني التحرري الفلسطيني سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

وهكذا من ليبيا إلى مصر مرورا بتونس وسوريا فإن حركات الإسلام السياسي، التي وصلت إلى السلطة أو شاركت فيها أو تسعى لها، تشارك بوعي أو بدون وعي بجريمة التضحية بالمشروع الوطني الفلسطيني مقابل وصولها إلى السلطة. صحيح أن المشروع الوطني بشقيه المقاوم والمفاوض كان يمر بمأزق بسبب التعنت الإسرائيلي والتواطؤ الأمريكي والتخاذل العربي بالإضافة إلى فشل وعجز السلطة ومنظمة التحرير الفلسطينية عن القيام بواجباتهم الوطنية،إلا أن الفلسطينيين والشعوب العربية لم تكن تنتظر من يطلق رصاصة الرحمة على المشروع الوطني بل كانوا يأملون أن سقوط زعماء تأمروا على الفلسطينيين وتاجروا بقضيتهم سيؤدي لإنقاذ المشروع الوطني الفلسطيني واستنهاض حالة شعبية ورسمية عربية مناهضة لإسرائيل وحلفاء إسرائيل وخصوصا واشنطن، ويأملوا التراجع عن كل الاتفاقات والتفاهمات والعلاقات التي كانت تربط العرب بإسرائيل،وكذلك إعادة النظر بالتحالف الأمني والعسكري مع الغرب وإعادة النظر بالقواعد العسكرية الأمريكية في المنطقة،كل ذلك تمهيد لإعادة تشكيل دول الطوق حول فلسطين ووضع إستراتيجية لتحرير الأراضي العربية المحتلة عام 1967 إن لم يكن أكثر من ذلك . أليس هذا هو الحلم العربي طوال العقود الموالية لهزيمة 67 ؟ وما قيمة ربيع عربي أو ثورات عربية إن لم يتم رد الاعتبار للإهانة التي لحقت بالعرب عام 67 ؟.

مع كامل الاحترام والتقدير للشعوب العربية التي قامت بالثورة فإن سقوط الحكام المستبدين لم يكن فقط بفعل الحراك الشعبي بل نتيجة دخول أطراف أخرى على خط الثورة ،أطراف داخلية – جماعات إسلامية وخصوصا جماعة الإخوان المسلمين - وأطراف خارجية –واشنطن وحلف الناتو– .أطراف تلاقت مصالحها لتوجيه الأمور ضمن معادلة جديدة يتم تخريجها وكأنها انتصار للثورة. ما كان لجماعة الإخوان المسلمين أن تصل للسلطة أو تشارك فيها لو لم تكن تفاهمات مسبقة بينها وبين واشنطن على عدم الإخلال بالوضع القائم بين إسرائيل والعرب،أيضا أن تشجع جماعة الإخوان المسلمين حركات المقاومة الفلسطينية التابعة لها على تهدئة الأوضاع مع إسرائيل. ومن هنا نلاحظ أن كل قوى المعارضة (الإسلامية) وخصوصا إخوان مصر أرسلت رسائل مزدوجة ،رسائل لواشنطن بأنها غير معادية للغرب ولمصالحه وتواجده في المنطقة ،والكل تابع الاتصالات والزيارات التي قام بها ممثلون عن هذه الجماعات للسفارات الأمريكية في بلدانهم ولواشنطن ولعواصم الغرب للتنسيق معها وطمأنتها على التزامها بمصالحها في المنطقة ،أيضا أرسلت هذه الجماعات رسائل عبر واشنطن وعبر ممثلي اليهود في واشنطن لإسرائيل بأنها تحترم الاتفاقات الموقعة معها وبالتالي تستمر باعترافها بوجود إسرائيل.

مما لا شك فيه أن الوضع في دول ما يسمى (الربيع العربي) سيكون مختلفا عما كان عليه سابقا ،والشعوب العربية هي المعنية بتقييم والحكم على هذا التغيير سلبا أو إيجابا ،كما أنها صاحبة الحق في اختيار نظامها السياسي وتوجهاته السياسية والأيديولوجية ،ونحن مع إرادة الشعوب العربية .ما يعنينا كفلسطينيين أن لا ندفع ثمن الصراع على السلطة وعلى تقاسم النفوذ في العالم العربي ،ما يعنينا وما يجب عدم السكوت عنه أن تستمر النخب والحركات السياسية العربية في توظيف قضيتنا ومعاناة شعبنا كأدوات للوصول إلى السلطة وتتكرر تجربتنا مع القوى والأنظمة القومية والثورية التي صادرت قضيتنا وقرارنا المستقل لأربعة عقود ،فانتكست وانتكست قضيتنا معها. لا نريد ان نخرج من سطوة أنظمة مستبدة تاجرت بالقضية وساومت عليها تحت شعارات وأيديولوجيات قومية ووطنية وثورية الخ ، إلى أنظمة إسلامية تضحي بالمشروع الوطني الفلسطيني وبحقنا في دولة مستقلة تحت شعار المشروع الإسلامي أولا، أو تبرير مهادنتها وتحالفها مع واشنطن وإسرائيل بضرورات بناء الوضع الداخلي أولا.

أليست مفارقة خطيرة تسترعي التوقف عندها ،أنه في زمن ما يسمى بالربيع العربي يتزايد النفوذ الأمريكي والغربي في المنطقة العربية بحيث لم تعد ولو دولة واحدة خارج إطار هذا النفوذ ، وأنه في زمن ما يسمى بالربيع العربي يزداد الاستيطان الإسرائيلي والتهويد في الضفة والقدس وتدنيس المقدسات بشكل غير مسبوق ،كما يزداد الوضع المالي والاقتصادي تدهورا ،بل حتى الجهود العربية لإتمام المصالحة الفلسطينية وإنهاء الانقسام توقفت.

لم يعد مجال للشك أن الانقسام الذي يؤسس لإمارة أو دولة غزة جزء من الإستراتيجية التي اشرنا إليها وانجاز متقدم لما يسمى (الربيع العربي) ولذا تعمل كل القوى الفاعلة في المعادلة المُشار إليها على تكريس الانقسام ودعم مشروع دولة غزة .

‏29‏/8‏/2012

Ibrahemibrach1@gmail.com